

التحرير والتنوير

واليحوم : الدخان الأسود على وزن يفعول مشتق من الحمم بوزن صرد اسم للفحم . والحممة : الفحمة فجاءت زنة يفعول فيها اسما ملحوظا فيه هذا الاشتقاق وليس ينقاس .
وحرف (من) بيانه إذ الظل هنا أريد به نفس اليحوم أي الدخان الأسود .
ووصف ظل بأنه (من يحوم) للإشعار بأنه ظل دخان لهب جهنم والدخان الكثيف له ظل لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس وإنما ذكر من الدخان ظله لمقابلته بالظل الممدود المعد لأصحاب اليمين في قوله (وظل ممدود) أي لا ظل لأصحاب الشمال سوى ظل اليحوم وهذا من قبيل التهكم .

ولتحقيق معنى التهكم وصف هذا الظل بما يفيد نفي البرد عنه ونفي الكرم فبرد الظل ما يحصل في مكانه من دفع حرارة الشمس وكرم الظل ما فيه من الصفات الحسنة في الظلال مثل سلامته من هبوب السموم عليه وسلامة الموضع الذي يظله من الحشرات والأوساخ وسلامة أرضه من الحجارة ونحو ذلك إذ الكريم من كل نوع هو الجامع لأكثر محاسن نوعه كما تقدم في قوله تعالى (إني ألقى إلي كتاب كريم) في سورة النمل فوصف ظل اليحوم بوصف خاص وهو انتفاء البرودة عنه واتباع بوصف عام وهو انتفاء كرامة الظلال عنه ففي الصفة بنفي محاسن الظلال تذكير للسامعين بما حرم منه أصحاب الشمال عسى أن يحذروا أسباب الوقوع في الحرمان وإفادة هذا التذكير عدل عن وصف الظل بالحرارة والمضرة إلى وصفه بنفي البرد ونفي الكرم .

(إنهم كانوا قبل ذلك مترفين [45] وكانوا يصرون على الحنث العظيم [46] وكانوا يقولون إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون [47] أو آباؤنا الأولون [48]) A
من كان التعليل هذا تضمنه ما أن فيتعين العذاب من الشمال أصحاب يلقاه لما تعليل E
أحوال كفرهم وأنه مما له أثر في إلحاق العذاب بهم بقرينة عطف (وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون) الخ عليه .

فأما إصرارهم على الحنث وإنكارهم البعث فلا يخفى تسببه في العذاب لأن [١] توعدهم عليه فلم يقلعوا عنه وإنما يبقى النظر في قوله (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) فإن الترف في العيش ليس جريمة في ذاته وكم من مؤمن عاش في ترف وليس كان كافرا مترفا في عيشه فلا يكون الترف سببا مستقلا في تسبب الجزاء الذي عوملوا به .

فتأويل هذا التعليل : إما بأن يكون الإتراف سببا باعتبار ضميمته ما ذكر بعده إليه بأن كان إصرارهم على الحنث وتكذيبهم بالبعث جريمتين عظيمتين لأنهما محفوفتان بكفر نعمة

الترف التي خولهم اﻻ إياها على نحو قوله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) فيكون الإتراف جزء سبب وليس سببا مستقلا وفي هذا من معنى قوله تعالى (وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا) .

وإما أن يراد بأن الترف في العيش علق قلوبهم بالدنيا واطمأنوا بها فكان ذلك ممليا على خواطرهم إنكار الحياة الآخرة فيكون المراد الترف الذي هذا الإنكار عارض له وشديد الملازمة له فوازن وازن قوله تعالى (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) .

وفسر (مترفين) بمعنى متكبرين عن قبول الحق . والمترف : اسم مفعول من أترفه أي جعله ذا ترفة بضم التاء وسكون الراء أي نعمة واسعة وبنائه للمجهول لعدم الإحاطة بالفاعل الحقيقي للإتراف كشأن الأفعال التي التزم فيها الإسناد المجازي العقلي الذي ليس لمثله حقيقة عقلية ولا يقدر بنحو : أترفه اﻻ لأن العرب لم يكونوا يقدرون ذلك فهذا من باب : قال قائل وسأل سائل .

وإنما جعل أهل الشمال مترفين لأنهم لا يخلو واحد منهم عن ترف ولو في بعض أحواله وأزمانه من نعم الأكل والشرب والنساء والخمر وكل ذلك جدير بالشكر لوأهبه وهم قد لابسوا ذلك بالإشراك في جميع أحوالهم أو لأنهم لما قصرُوا أنظارهم على التفكير في العيشة العاجلة صرفهم ذلك عن النظر والاستدلال على صحة ما يدعوههم إليه الرسول A فهذا وجه جعل الترف في الدنيا من أسباب جزائهم الجزاء المذكور .

والإشارة في قوله (قبل ذلك) إلى (سموم وحميم وظل من يحموم) بتأويلها بالمذكور أي كانوا قبل اليوم وهو ما كانوا عليه في الحياة الدنيا .

والحنث : الذنب والمعصية وما يتخرج منه ومنه قولهم : حنث في يمينه أي أهمل ما حلف عليه فجر لنفسه حرجا